تعقيبات

الانتحار فى مصر :

فى عدد سابق من الرسالة كتب الدكتور أحمد موسى مقالا عن الانتحار كظاهرة اجتماعية نفسانية قال فى مطلعه : « لم يكن الانتحار معروفاً فى مصر قبل ربع قرن ، وكان الناس على الأرجح أكثر قناعة واحتمالا وأرحب صدراً لمقابلة آلام الحياة وأقل تبرماً بها ، أما الآن ولاسيما خلال عشر السنوات الأخيرة ، فقد بدت ظاهرة مخيفة هى إقدام الكثيرين على الانتحار ، سواء فى ذلك الشبان والشابات ، والرجال والنساء ، دون فرق ظاهر بين متعلم وجاهل ، وبين فقير وغنى ، وبين صحيح ومريض ، وبين متزوج وأعزب ... »

وهذا كلام يحتاج إلى تصحيح ، والصواب أن يقول : إن الانتحار لم يعرف فى مصر كظاهرة اجتماعية قبل نصف قرن ، ولم تتمثل هذه الظاهرة للعيان إلا بعد أن اتصلت مصر بأوربا ، وأخذت تعب من شرور المدنية الأوربية أضعاف ما تقتبس من خيرها ، وكان هذا الداء الوبيل ضمن الشرور التى أصابت المجتمع المصرى وتأصلت فيه .

والطريق الذى وصل منه هذا الداء إلى مصر هو الأدب ، أدب القصص الأوربى وما يحمل من انتحار أبطال تلك القصص وبطلاتها ، ثم ما كان يصوره ذلك الأدب من حوادث الانتحار على المسرح ، وقد وجد هذا النبات الغريب فى بيئتنا تربة خصبة وعوامل للنمو مما خلقته العصور المظلمة فى نفوس المصريين فنما وفرع ، ولعل أوضح آثار لهذا الداء هو ما بدا بين تلامذة المدارس الراسبين فى الامتحان من الإقبال على الانتحار بكثرة مخيفة أفزعت أولياء الأمور ، وقد صور الغفور له أمير الشعراء هذه الظاهرة ونددبها فى قصيدة من أروع قصائده إذ يقول :

كل يوم خبر عن حدث ... سئم العيش ومن يسأم يذر
عاف بالدنيا بقاء بعد ما ... خطب الدنيا وأهدى ومهر
حل يوم العرس منها نفسه ... رحم الله العروس المحتضر
ضاق بالعيشة ذرعاً فهوى ... عن شفا الناس ويئس المنحدر
راحلا فى مثل أعمار التى ... ذاهباً فى مثل آجال الزهر

إلى أن يقول :

لامه الناس وما أظلمهم ... وقليل من تقاضى أو عذر
قال ناس صرعة من قدر ... وقديماً ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جنة ... ورأيت العقل فى الناس نذر
ويقولون جفاء راعه ... أب أغلظ قلباً من حجر
وامتحان صعبته وطأة ... شدها فى العلم أستاذ نكر
لا أرى إلا نظاماً فاسداً ... فكك العلم وأودى بالأسر

ولما نظم حافظ ابراهيم قصيدته المعروفة فى شكوى الحياة ، وقال فيها عن نفسه :

سميت إلى أن كدت أتعل الدما ... وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع ... رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختها ... وإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبى رياح الموت نكباء واطفئى ... سراج حياتى قبل أن يتحطما !

انتقدته الصحف ونددت بهذه الروح ، وقالت إحدى المجلات الأدبية : حرام على حافظ ابراهيم أن يصور اليأس لأبناء مصر بهذه الصورة ، وأن يكون لهم قدوة فى التلهف على الموت ومفارقة الحياة ، لأن هذا مما يحبب لهم الإقدام على الانتحار .

ولا شك أن ظاهرة الانتحار فى مصر قد تطورت فى مظاهرها وفى أسبابها ، فبعد أن كانت محصورة فى استعمال الشنق أو تجرع المواد السامة ، أصبحت تتم بفنون مختلفة لإزهاق الروح ، وبعد أن كانت قاصرة على التلاميذ الراسبين ، غدت نهباً لكل أسباب المضايقة ونكد الحياة ، وقد دل آخر إحصاء عن حوادث الانتحار والشروع فيه بمصر فى عام واحد على أن الإقدام على هذا الجرم الشنيع يرجع إلى عدة أسباب تبلغ فى النسبة المئوية ٨٦ بدافع المرض المزمن ، و ٥٤ بسبب الفقر المدقع ، و ٣٠ من جراء الشقاق العائلى ، و ٢٤ من المتاعب الزوجية ، و ٢٢ لسوء المعاملة ، و ١٧ من أثر الحزن ، و ١٦ بدافع الكوارث المالية ، و ١٢ لأسباب غرامية ، و ٩ ستراً للعار وخوفاً من الفضيحة . وعلى أى حال فإن هذا المرض ليس من طبيعتنا ، ولكنه لعنة لحقت بنا من لعنات المدنية الأوربية . وما أكثرها

هذه الألفاظ الأثرية أيضا :

لا أريد أن أدخل فى مناقشة مع الأستاذ أحمد رضا عضو المجمع العلمى العربى الدمشقى ، لأنى على يقين من أنه هو ومن يلف لفه من اللغويين يمسكون أنفسهم بفكرة لا يريمونها ، وهى أن القواميس قد جمعت من الألفاظ ما يكفى لكل معنى مستحدث فغاية البراعة فى التقديم هى أن يبذل الرجل منهم جهد الطاقة ليظفر بكلمة مهما كانت مجفوة ميتة ، ثم يكرهها إكراهاً على أداء معنى حادث ولو لأدنى ملابسة ؛ وإنى إذ أطالب منه ومن أصحابه الاتجاه إلى ناحية أرحب فى توفير مادة اللغة ، فإنى أكلفهم خطة شديدة .

غير أنى أعود إلى هذا الموضوع لأقول لحضرته فى كلمة قصيرة إننى لا أقول إن « الألفة الذوقية وحدها تكون ميزاناً لوضع الكلمات اللغوية واختيارها » كما فهم من كلامى ، ولكنى أقول إن اللغة لا شك ظاهرة اجتماعية تتطور بتطور الحياة ، وأرجو أن لا ينضبه هذا التعبير ، وهى بهذا المعنى تتأثر بالظواهر الاجتماعية الأخرى ، وتكون صورة لأفكار أهلها وأذواقهم وما يناسب اتجاهاتهم وميولهم نحو الحياة ، ولهذا تموت من اللغة ألفاظ وتعابير وتستحدث ألفاظ وتعابير ، ولولا أن تكون اللغة مطواعة قابلة بمادتها لهذا التطور ، فإنها لا بد أنها تختفى ، ولهذا السبب كم اختفت لغات ولغات !

ولقد ماتت من اللغة العربية ألفاظ كثيرة ، ماتت لأنها فقدت ما يصلها بحياة الناس من الجرس والأداء والمعنى ، ثم بقيت محفوظة فى المعاجم كأنها قطع الآثار فى المتاحف ، وهى لا شك عربية أصيلة ، وقد تكون وردت فى أمثال من فصيح الشعر والنثر ومأثور الكلام ، ولكنا لا نستطيع أن نبعث فيها الحياة مرة أخرى ، وإلا لظلت هى حية على رغمنا ، فالدرمك والدغرى والمدغرة والداق والمربقة ألفاظ عربية لا أمارى فى عربيتها ، ولكنها ماتت منذ زمن قديم ، وليس فى طبيعتها دلالة الحياة ، أو على الصحيح ليس فى طبيعتنا نحن ما يهيئ لها الحياة ويقدر لها التداول فى الألسن والسير فى أساليب الكتاب والشعراء والخطباء وهم صيارفة الكلام .

ولعل الأستاذ يعرف أن جماعات وأفراداً من الأفذاذ المخلصين قد وقفوا جهودهم على هذه الخطة التى ينتهجها فى خدمة اللغة بإحياء الألفاظ المجفوة الميتة ، ولكنهم لم يُجدوا كثيراً ، فنادى دار العلوم والمجمع اللغوى القديم الذى تألف برياسة السيد البكرى ، والمغفور لها فقيدا اللغة أحمد تيمور باشا ، وأحمد زكى باشا ، وغير هؤلاء جميعاً قد جهدوا جهدهم فى اختيار ألفاظ قديمة لتأدية المعانى المستحدثة ، وأرادوا مدافعة الدخيل من أسماء المخترعات والمكتشفات بإحياء ألفاظ قديمة نسيها الزمان ، فما أجدى هذا العناء كما يجب .

اختاروا « البرندج أو الأرندج » لبوية الأحذية ، و« الوهين » لقدم الفصلة ، و « الدريئة » للهدف الذى يتعلم عليه الرمى ، و « الطريخ » لسمك السردين ، و « الطيلسان » للشال ، وهو الكساء المعروف ، كما اختاروا عشرات من أمثال هذه الكلمات ، فأين هو الكاتب أو الشاعر أو الخطيب الذى استعمل هذه الكلمات حتى من بين أولئك الذين أضنوا أنفسهم فى إخراجها واختيارها ، وهكذا سيكون الشأن فيما اختاره الأستاذ رضا من الدرمك والدغرى والقيع ، فسيظل الأدباء يؤثرون عليها فى التعبير : الدقيق ، الفاخر ، والحرب الفاجئة ، وطبق الفاكهة ...

وبعد ، فلا يحسب الأستاذ أنى أسد هذا الطريق من بابه ، أو أنقضه من أساسه ، أو أنكر إحياء الألفاظ العربية ، ولكنى أنشد الألفاظ التى تصلح للحياة حتى يمكن أن نحيا ، ولى فى هذا رأى قد أدعته فى « الرسالة » منذ عشر سنوات فى مقال بعنوان « مهجور اللغة » ، ولولا ضيق المقام ، وأن القدر لى فى هذا الباب أن يكون « تعقيبات » خاطفة ، لمددت القول فى تلك الناحية إلى الغاية .

« الجاحظ »

ظهر حديثا كتاب :

أحمد عرابى

للأستاذ محمود الخفيف